# الباب الرابع

# الجبهة الوطنية المتحدة

## ـ ٥٨ ـ

# الجيش والشعب[1]

## أبعاد ومغزى الجبهة الوطنية المتحدة

ولننتقل الآن إلى تبيُّن معالم تكوين الجبهة الوطنية فى تطور حركتنا الوطنية المصرية فى تاريخنا الحديث. وبطبيعة الأمر، ليس المعنى بتعبير «الجبهة الوطنية» أنه كانت هناك كتلة من القوى السياسية والاجتماعية اعترفت بمثل هذه التسمية حتى وقت قريب، وإنما المقصود أن نتبين هنا معالم تجمع القوى المختلفة والمتباينة المشرب والانتماء الفكرى والاجتماعى فى جبهة النضال ضد الهيمنة الغربية، من أجل الحرية والسيادة والتقدم.

**تكون الجبهة الوطنية خلال المرحلة الأولى من عصر النهضة (١٨٠٥ ـ ١٨٧٩ ـ ١٨٨٢):**

(أ) كان الشكل الأول ذلك الذى تبدى فى تحرك الشعب المصرى ضد الغزو المسلح الفرنسى بقيادة بونابرت (١٧٩٨ ـ ١٨٠٢). واتخذ شكل التحالف بين طلائع البرجوازية النامية فى المدن، أى رجال الدين والتجار، العلماء ورؤساء الطوائف من ناحية، وجماهير الشعب، خاصة فى مدينتى القاهرة والإسكندرية، وبالأخص فى الأحياء الشعبية حول المراكز الدينية الكبرى، وهى الأحياء التى تركزت فيها طوائف الحرفيين والتجار من ناحية أخرى. ولم يكن لمصر آنذاك جيش بمعنى الكلمة، نظرًا لتفتت الدولة فى نهاية العصر المملوكى، وإن كان من المعروف أن جماعات كبيرة من حملة السلاح شاركت فى ثورتى القاهرة والإسكندرية.

(ب) وعندما قامت الدولة الأولى الموحدة فى تاريخ مصر الحديث، بل وفى تاريخ

---

1) بحث مقدم إلى ندوة مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس بالقاهرة.

الشرق كله قاطبة، نعنى بذلك دولة محمد على التى بدأت بانتخابه واليًا لمصر عام ١٨٠٥، كان ذلك إيذانًا ببدء مرحلة تحديد مشروع مصر القومى الكبير، ألا وهو قيادة الشرق العربى لاحتلال مكانة الزعامة فى العالم الإسلامى، وإقامة خلافة إسلامية قوية فى القسطنطينية بقيادة: مصر الجديدة، ذلك لتحقيق نهضة حضارية شاملة. كانت هذه رسالة محمد على الكبير، وقد سعى إلى تحقيقها بواسطة الجمع بين مجموعة من العناصر التكوينية هى: إقامة رأسمالية دولة، حول الصناعات الحربية، وتحت ستار الحماية الجمركية، والاكتفاء الذاتى الاقتصادى الكامل؛ إنشاء قوات مسلحة برية وبحرية على أرفع مستوى من القوة والكفاءة؛ تكوين أساس ثقافى ـ تعليمى ـ فكرى يجمع بين الأصالة والمعاصرة. وقد اعتمد محمد على فى هذا كله على نخبه من صفوة القادة حول الشيخ رفاعة الطهطاوى وإبراهيم باشا. وباختصار شديد، فلنذكر أن التاريخ برهن على أن وجود هذه القوة الحضارية العظيمة ـ بفضل انصهار الفكر والسلاح ـ اضطر جميع دول أوروبا بلا استثناء إلى عقد حلف حربى مقدس ضد مصر، رافعة لواء نهضة الشرق، فكان وقف جيوش إبراهيم على أبواب القسطنطينية، ونسف أساطيله فى مياه اليونان، وفرض تفكيك نظام الحماية الجمركية بمعاهدة لندن ١٨٤٠، كلها بدايات لتفكيك مصر وتسليمها تدريجيًّا لعصابات الرعاع من حثالة أوروبا، وإخضاع اقتصادها بفضل ديون شق قناة السويس، حتى احتلال الوطن عسكريًّا على أيدى بريطانيا عام ١٨٨٢.

بيت القصيد هنا، أن هذا التقدم الحضارى العظيم أصبح رائدًا للشرق كله: فاليابان حذت حذوه بكل دقة وإعجاب، اليابان بقيادة الإمبراطور ميجى ابتداءً من ١٨٦٨، وكانت لحسن الحظ على منأى من الغزوات الحربية المباشرة المتلاحقة فى منطقتنا، واضطر السلطان إلى إعلام التنظيمات القضائية فى تركيا تمثلاً بواليه فى مصر، ثم جاءت جمعية الاتحاد والترقى ومن بعدها جمعية الشباب الأتراك تحذو حذو نهضة مصر العظيمة، إلى غير ذلك من التغييرات بعيدة المدى فى عموم أقطار الشرق الخاضعة للاستعمار الغربى.

كان الدرس الرئيسى فى هذه النهضة الحضارية العظيمة إنما هو تكوين جبهة وطنية مصرية متحدة قوامها الأساسى جيش مصر من ناحية وطلائع الفكر والعمل السياسى

من ناحية أخرى، وذلك بفضل الريادة الفكرية المبدعة التى قدمها آنذاك رفاعة الطهطاوى وقد أدرك بعبقريته أنه لا يمكن لمصر أن تحذو حذو دول أوروبا، إذ أن مصر لن تُمكّن أبدًا من مدى زمنى يمتد على عدة أجيال كى تبنى دولتها العصرية. كان أمامه أعضاء البعثات العلمية إلى أوروبا، وكلهم يدرسون العلوم الحديثة، وتطبيقاتها التكنولوچية، علوم الحرب والإدارة، إذ لم تبدأ دراسة الإنسانيات إلا فى الثلث الثالث من القرن التاسع عشر. وقد وضع الشيخ رفاعة نظامه لرجال تلك البعثات: كان عضو البعثة المتخرج من أرقى معاهد أوروبا يحتجز فى القلعة عدة شهور، حيث تدبر له غرفة وتعيين ومعاون، حتى يتأتى ترجمة مرجع يعتبره خير ما كتب فى فرع تخصصه إلى اللغة العربية، وعندئذ يقوم بعرض ترجمته أمام لجنة تحكيم برئاسة الشيخ رفاعة فيعين ملازمًا ثانيًا فى السلك الميرى، ويتولى فورًا وظيفة مسئولة فى إحدى مصالح الدولة الجديدة على تنوع قطاعاتها بين الاقتصاد والتعليم والإدارة والمواصلات والصحة والحرب. هكذا تكونت النواة القيادية لجهاز دولة مصر المستقلة فى المرحلة الأولى من عصر نهضتها، فتمكن محمد على من نوعية رفيعة عصرية تمامًا، وشديدة الولاء للوطن، فتحت لمصر أبواب إفريقيا والجزيرة العربية والمشرق العربى والبحر المتوسط حتى تركيا، بينما تدفق العلم من مجموعة المدارس العليا والمطبعة الأميرية والصحافة الجديدة والمجالس الأدبية والعلمية والفنية.

وقد واكب هذا التكون المكثف للجبهة الوطنية فى مستوى القيادة موجة واسعة من التكوين الوحدوى على المستوى الشعبى الواسع، وخاصة عندما اجتمع إبراهيم وضباطه ــ فلاحى مصر المجندين فى الجيش ــ فتحول إبراهيم إلى اللغة العربية ثم العروبة، وأصبح رائدها الأول فى مصر الحديثة، بفضله، وتحت تأثير جنوده الفلاحين مرآة الريف المصرى العريق.

(ج) وقد تجلت هذه العروة الوثقى بشكل واضح ـ ولعله بشكل أكثر مقبولية لدى فئة المثقفين ـ أثناء عصر إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ثم ثورة مصر بقيادة أحمد عرابى وصحبه ١٨٨١.

إن تحليل سياسة إسماعيل الداخلية تبين بوضوح كيف أنه كان يهدف إلى تكوين برجوازية وطنية أهلية ـ بعد تفكيك معظم القطاع العام الذى أنشأه محمد على ـ وتمكين

هذه البرجوازية المصرية على اختلاف فئاتها من المشاركة فى أمور السياسة من خلال المجالس التشريعية، وذلك بهدف وقف التغلغل الأوروبى إلى قلب الوطن المصرى، وفى نفس الوقت نرى إسماعيل يعمل على تمصير قيادات الجيش المصرى، وتولية أول مجموعة من الضباط العظام المصريين قيادة الكتائب والآليات بعد إقصاء الضباط العثمانيين، بحيث أصبح قادة الآليات الثلاث لجيش مصر جميعًا من المصريين، ووقف ثلاثتهم حول القائِد أحمد عرابى فى ساحة عابدين لمواجهة توفيق والنفوذ الغربى عام ١٨٨١ إيذانًا بالثورة. وهنا أيضًا نرى أن تكون الجبهة الوطنية المتحدة بدأ من نفس المنبع ونفس الدوافع الأساسية، ألا وهو صيانة استقلال مصر وسيادتها ومحاربة الهيمنة الغربية الاستعمارية. ولكن هذه الجبهة اتخذت بطبيعة الأمر شكلاً متقدمًا بشكل واضح، ألا وهو شكل الجبهة بين مختلف فئات البرجوازية المصرية من ناحية، ومواصلة الوئام بين رجال جيش الوطن والرأى الوطنى الشعبى من ناحية أخرى.

وكما قلنا، كانت ثورة مصر بقيادة جيش مصر كله ظاهرة تاريخية عظيمة الأهمية، وإن لم تحظ بما هى جديرة به من الاهتمام النظرى. ذلك أن الحركة العسكرية آنذاك لم تكن حركة بعض الضباط المتمردين على غرار تقلبات أمريكا اللاتينية فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ولكنها كانت تحركًا لجميع قوات الجيش المصرى آنذاك، كانت تحرك الآليات الثلاث، جنودًا وضباطًا وقادة حول أمراء الألوية الثلاثة وعلى رأسهم أحمد عرابى. وقد مثلت ثورة عرابى إذن ذروة الجبهة الوطنية المتحدة التى صهرت وجدان مصر الوطنى متمثلاً فى تبنى الجيش المصرى بأسره لبرنامج الحزب الوطنى، فأصبح لا مفر من ضرب مصر عسكريًا واحتلالها بالنار والسلاح.

## ـ ٥٩ ـ

# الجبهة الوطنية المتحدة فى عصرنا

تزدهر هذه الأيام مهنة تصنيع المصطلحات المبتكرة الشيقة: من خريطة الطريق إلى «بناء الثقة» مرورا بيوميات تأرجح استعمالات مصطلح «الإرهاب»، الذى أرادوا له أن يحل محل الإمبريالية والهيمنة، فأصبح مدخلا للحرب الاستباقية والاحتلال العسكرى على طريق «بناء الديمقراطية».. ما علينا.

فى هذا الجو المفبرك يرتفع بشكل مطرد ـ يكاد يكون يوما بعد يوم ـ مصطلح وشعار الجبهة الوطنية المتحدة على أرض مصر، وهى التى يختزلها البعض إلى الجبهة الوطنية.

الظاهرة لافتة للأنظار حقيقة، إذ أنها تتكرر بإصرار وإلحاح لا يعرف الكلل، وكأن معانى التشكيك لا تنفذ إلى الجوهر. المعنى الكبير، الشعار الوطنى المركزى يعيش فى أعماق حركتنا الوطنية وثورتنا التحريرية منذ الأربعينيات، ونراه يرتفع مدويا عاليا مطلبا قوميا وتوجها مستقبليا حتميا كلما اشتدت الأزمة فى الداخل تحت وطأة العدوان والحصار الخارجى.

ثم هناك ظاهرة ـ أو لعلها خاصية ثانية لهذا الشعار على أرض مصر ـ لا بد أن نلتفت إليها.. هل صحيح أن هذا الشعار يسود شعوب ومجتمعات دول المعمورة؟ أم أنه مقصور على عدد منها دون غيرها؟ لم نسمع بمثل هذا الشعار مثلا للسياسة القومية فى إنجلترا ولا أمريكا من أعلام الدول الصناعية المتقدمة، ولا فى القارة الإفريقية مثلا، وكذا فقد شاهدنا العديد من الدعوات إلى مواقف قومية مشتركة لمواجهة قضايا مرحلية ملحة فى عدد من الأنظمة الديمقراطية الغربية القائمة على ثنائية حزب الأغلبية وحزب المعارضة، كما حدث فى إنجلترا فى أثناء الحرب العالمية الثانية، ويحدث الآن فى الولايات

المتحدة لتأكيد الحرب العالمية الحضارية ضد المستقبل، بدءا من دائرتنا العربية والشرق أوسطية. وكذا نشهد حالات من الجبهات الوطنية أو الدعوات إلى الوحدة الوطنية فى حالات نادرة قصوى، ولمرحلة زمنية محدودة، مثلما تم فى فرنسا بين ديجول والشيوعيين عام ١٩٤٥ حتى طرد الشريك الشيوعى من أرض المشاركة نهائيا منذ ١٩٤٩ إلى اليوم.

أما فى إيطاليا, فإن الدعوة إلى المهادنة التاريخية بين الحزب المسيحى الديمقراطى الحاكم والحزب الشيوعى لم تستمر بعد اغتيال رئيس الوزراء الديمقراطى المسيحى ألدو مورو على أيدى عصابات الإجرام والمافيا اليمينية عام ١٩٧٨.

أين إذن انتشرت ظاهرة الدعوة إلى جبهة وطنية متحدة فى عصرنا؟ إن رصد الطريق المعاصر يبين أن هذه الظاهرة وذلك الشعار من خصوصيات ونصيب المجتمعات القومية العريقة, خاصة فى الشرق الحضارى, فى الصين وڤيتنام وكوريا وماليزيا واليابان, وقد لحقت بها منذ قليل البرازيل كبرى دول أمريكا اللاتينية بعد انتخاب لولا داسيلفا رئيس حزب العمال البرازيلى رئيسا لجمهورية البرازيل بنسبة قياسية من أغلبية الأصوات عام ٢٠٠٣.

كيف إذن يمكن تفسير استمرارية الدعوة إلى الجبهة الوطنية المتحدة فى مصر فى المراحل التى سبقت ظهور هذا التعبير فى الأربعينيات من القرن العشرين.

## نهضة محمد على بداية

**أولاً**: نهضة مصر وصحوتها المذهلة بدءا من محمد على حتى عصر إسماعيل وثورة ١٨٨١. من فضائل الأحوال أن هذه المرحلة التاريخية التى أعادت بناء شموخ مصر بعد أربعة أجيال من الانحدار بدأت تحظى باهتمام الرأى العام والمؤسسات الحكومية والأهلية المصرية منذ قليل, وعلى وجه التحديد منذ عبور أكتوبر١٩٧٣.

دائرة الحكم بدأت من انتخاب محمد على واليا لمصر عام ١٨٠٥ على أيدى إجماع رجال الدين وقادة الرأى ورؤساء المهن فى القاهرة بعد طرد غزوة بونابرت. تناول الوالى الجديد أمور بناء حكم استقلالى تحديثى حضارى بأسلوب متفرد لم تشهده

الدول حتى هذا الحين.. ماذا نلحظ على هذه التجربة الفريدة التى شرفنا بدراستها فى الأعماق فى رسالتنا نهضة مصر (١٩٦٩) بدءا من أعمال محمد صبرى وعبد الرحمن الرافعى التكوينية الرائدة؟

( أ ) القسمة المميزة الأولى إنما هى ـ كما قلنا : وحدة رجال الفكر والسلاح فى سبيل مصر, أى توحيد طلائع مصر العلمية وكوادرها العاملة دون أدنى تمييز ، اللهم إلا الكفاءة العلمية والولاء للوطن. هذا ، مع العلم أن صراع الطبقات الاجتماعية ـ خاصة بين دوائر المجتمع القديم وريث تراث المماليك الإقطاعى العسكرى من ناحية, وفئات المجتمع الحديث, خاصة قطاعه الصناعى والعسكرى من ناحية أخرى ـ كان سمة ثابتة لمصر فى عصر محمد على.

(ب) وكذا فإن تشعب الفكر المصرى إلى اتجاهين : التحديث, أو التحديث الليبرالى, حول ريادة رفاعة الطهطاوى فى الثلث الأول من القرن الثامن عشر, جنبا إلى جنب مع استمرار التوجه الإسلامى التراثى العريق وارتقائه إلى مستوى الأصولية الإسلامية حول محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى النصف الثانى من القرن نفسه.. نقول : إن هذا التشعب لم يكن له أثر فى تواصل مختلف عناصر الوحدة الوطنية (هكذا كانت تسمية الجبهة الوطنية آنذاك) وكأن الأولوية المطلقة كانت على الدوام لنهضة مصر بدلا من تشرذم الجهود واستعداء فريق على آخر ، كما حدث فى النصف الثانى من القرن العشرين بشكل متصل.

(جـ) انتهى حكم محمد على الشامخ.. حاصرت أوروبا خليفته عباس الأول, ثم بدأ الاختراق بالديون بحجة ضرورة اللحاق بأوروبا فى عصر سعيد وصديقه ورائده دى ليسابس, ثم جاء الخديوى إسماعيل ليستعيد مسيرة محمد على. فى هذا الجو ارتفعت مطالب الحركة الوطنية وامتدت بطبيعة الأمر إلى الجيش بحيث تكونت بؤرة ثورة ١٨٨١ بعد خلع إسماعيل على أيدى أوروبا عام ١٨٧٩. المهم هنا أن نلحظ ـ المرة تلو المرة ـ أن السبيل إلى تمكين مصر من استقلالها وتقدمها صوب النهضة كان دوما هو وحدة جميع العناصر الوطنية فى جبهة وطنية فاعلة وقوية لم تنزو رغم مراحل الانكسار والتبعية.

ثم كان عصر الاحتلال, هذه المرة على أيدى بريطانيا العظمى عام ١٨٨٢ ـ ساد الظلام ـ ارتفعت دعاوى التفرقة, أو هكذا ظن المحتل, ثم اجتمع شمل طلائع الوطن من جديد فى إطار الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد, وقد انتشرت ركائزه دون إبطاء إلى ما تبقى من فلول جيش مصر وهيئة ضباطه حول محمود سامى البارودى.

إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى، وبدأت إرهاصات الثورة المصرية الثانية عام ١٩١٩.

**ثانيًا:** ثورة ١٩١٩ قمة شامخة من تحرك أمتنا المصرية لمواصلة وتطوير نهضة محمد على وإسماعيل, والحق أن حقيقة ثورة ١٩١٩ وإدراك مغزاها التاريخى تعطل بعض الوقت منذ ١٩٥٤, ثم عاد تدريجيا والحمد لله بعد عبور أكتوبر ١٩٧٣. كيف كانت إذن الوحدة الوطنية ـ أى الجبهة الوطنية المصرية ـ فى مرحلة ثورة ١٩١٩؟

١ ـ مرة أخرى كانت قيادة الثورة تمثل أوسع رقعة من المجتمع المصرى والأغلبية الساحقة من القوى المتحركة للحركة الوطنية المصرية, ذلك أن الوفد المصرى منذ اللحظة الأولى, أراد لنفسه أن يكون ممثلا للأمة بأسرها, دون تمييز ولا إقصاء. الأمة كلها وفى المقام الأول حسب ما رأته قياداته التاريخية آنذاك رجال المجتمع المدنى, بجناحيه الفكرى (خاصة رجال القضاء والمحاماة والتعليم) والاقتصادى حول دعوة محمد طلعت حرب إلى إنشاء بنك مصرى لكل المصريين ـ أى بنك مصر ـ ومن حوله تدريجيا دائرة الشركات الصناعية والتجارية, وكذا مثيلاتها فى قطاعات الزراعة والمواصلات والفنون والسينما والقطاع المدنى الشامخ الصاعد حول الرأسمالية والبرجوازية فى المدن خاصة, ثم كانت الوحدة الوطنية على المستوى الثانى, أى وحدة أنصار الأمة من المسلمين والأقباط الذى تجلى بشكل ساطع لا مثيل له فيما بعد بقيادة الوفد المصرى والهيئات البرلمانية ووزارات هذا الحزب حتى عام ١٩٥١, وقد تبلور هذان التوجهان حول حمدى سيف النصر باشا وزير الحربية الذى فتح أبواب الكليات الحربية لأبناء الطبقات الشعبية عام ١٩٣٥, ثم مكرم عبيد باشا, الأمين العام القوى للحزب الذى أعلن فى الإسكندرية عام ١٩١٩ أن «المصريين عرب» إعلانا لدخول مصر فى قلب دائرتها

القومية العربية.

٢ ـ ولكن السياسة العامة الرشيدة هذه بدأت تتقلص بقدر تنوع المجتمع المصرى وطلائعه, قطاعات متتالية لأقلية كبار ملاك الأرض رأت أن تنفصل عن حزب الوفد, خاصة فى إطار حزب الأحرار الدستوريين, وكذا ممثلو الرأسمالية الصناعية حول اتحاد الصناعات المصرية برئاسة إسماعيل صدقى, ثم حزب السعديين.

٣ ـ وكذا وبقدر ما ازداد فيه تأرجح الحركة الوطنية فى الثلاثينيات ضد الاحتلال, وهى ظاهرة لم تستطع جبهة الوفد آنذاك أن تواكب جميع تطلعاتها, ظهرت على الساحة قوى وطنية راديكالية جديدة مثل حزب مصر الفتاة الذى كانت دعوته إلى توحيد الحركة الوطنية والمجتمع المصرى حول نواته الحركية الجديدة, بدلا من الاكتفاء بالنظام البرلمانى.

ثورة مصر الثانية إذن بين ١٩١٩ و١٩٥١ تمسكت فى الأساس بشعار الوحدة الوطنية التى تعبر عنها الجبهة الوطنية, وإن كان ذلك فى قوالب لم تستطع أن تستوعب الجديد فى الحركة الوطنية المصرية, وجدانا وعملا, خاصة تحت وطأة الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى ١٩٢٨ ــ ١٩٣٢ ومحاصرتها لإنجازات وتطلعات الاقتصاد الوطنى المصرى.

هنا يبدأ فصل جديد من كتاب ثورة مصر ــ منذ ١٩٣٦ ومداخل الحرب العالمية الثانية إلى اليوم ــ التنظيمات الشعبية الثورية تعود إلى تنوع أشكالها من مصر الفتاة والحزب الوطنى الجديد الحركة الشيوعية المصرية وحزبها الثانى وكذا منظمة الضباط الأحرار، وبينما اجتمع قطاع من الإسلام السياسى فى هيئة الإخوان المسلمين.

كانت هذه هى الأرضية التاريخية والنسيج المجتمعى الذى ارتفع فيه شعار الجبهة الوطنية المتحدة عام ١٩٤٦ من صميم تجديد شباب الحركة الوطنية المصرية بدأ من اللجنة الوطنية للعمال والطلبة والشعبية الوفدية والنوادى السياسية ــ الثقافية التقدمية فى تواز مع حركة الضباط الأحرار بين شباب طلائع القوات المسلحة.

هنا يبدأ كتاب جديد يسطر شعبنا صفحاته يوما بعد يوم, وقد ارتفعت حول مصر الزوابع والتهديدات من كل مكان وهى التى فرضت علينا حروب ١٩٤٨ و١٩٥٦

و١٩٦٧ وحرب الاستنزاف منذ ١٩٦٩ حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

## من حوليات وبناء الثقة..

فى هذا الجو واللحظة ـ وإذ شرعنا فى مواصلة العرض والتحليل ـ ارتفعت نبرة المفاهيم والتعبيرات الجديدة التى قلناها من خريطة الطريق إلى بناء الثقة فى عصر الإرهاب حتى بناء الديمقراطية.

نشرة أسبوعية دورية محدودة التوزيع لونها أزرق فرضت نفسها على مائدتنا ـ فجأة ـ إنها نشرة فورين ريبورت الإنجليزية الشهيرة التى تقدم المسموح به من معلومات وتحليل المخابرات الخارجية البريطانية منذ ١٩٤٦. العدد رقم ٢٧٣٧ بتاريخ ٢٢ مايو ٢٠٠٣ تدخل فجأة لقطع الحديث حول مراحل الجبهة الوطنية المتحدة ـ أو لعله يستحثنا إلى حتمية منح الأولوية المطلقة لتعميق هذا الشعار.

مقال بعنوان جيش إسرائيل الرقمى (صفحة٢ ـ٣) يقدم عناصر مشروع الإصلاح الثورى الذى سوف يقدمه قادة القوات المسلحة الإسرائيلية فى شهر يوليو ٢٠٠٣ إلى وزير الدفاع شاؤول موفاز بغية مواجهة تحديات عسكرية جديدة كنتيجة للحرب فى العراق، وكذا ميزانية الدفاع قد تقلصت.

ما هى ترى عناصر مشروع الإصلاح الثورى هذه؟ وما علاقتها بموضوع الجبهة الوطنية المتحدة فى مصر؟.

١ ـ جيش إسرائيل هو أكبر جيش فى الشرق الأوسط يهدف المشروع إلى خفض تعداده بمعدل الثلث. هذا مع توجيه معظم الميزانية إلى القوات الجوية والمخابرات العسكرية والأسلحة الموجهة بدقة.

٢ ـ فرق الدبابات سوف تنخفض بمعدل الثلث. وكذا سوف تعتمد الفرق الباقية على نوع واحد من الدبابات إسرائيلية الصنع «ماركافا مارك٢٤» التى يعتبرها بعض الخبراء الإسرائيليين أنها خير دبابة للحرب الهجومية فى العالم. وذلك بدلا من أنواع الدبابات الخمس المعمول بها الآن.

٣ ـ جهاز الاتصال بين فرق الدبابات الجديدة يعتمد على أرقى التقنيات لاستعمال الرادار ونظام الحاسوبات، تتجمع فى وحدات قيادة وتحكم مكيفة، حيث تقوم جماعات من النساء بتحريكها, ما دام عنصر اللياقة البدنية سوف تقل أهميته.

٤ ـ القوات الجوية سوف ينخفض عددها بنسبة ٢٠٪ فى يناير ٢٠٠٤ وبينما يتم تسريح خمسة أسراب قتالية وكذا قادتها وطقومها, فسوف يتم تسليح القوات الجوية بالطائرات الجديدة من طراز «إف ـ ١٦١ شتورمس». وهذا بينما سوف يتم مزج الطائرات العمودية لصيد الدبابات من آخر طراز مع القوات الجوية التى يتم التحكم بها بالأجهزة الرقمية.

٥ ـ ثم هناك موضوع القوات الخاصة وعددها الآن عشرة ألوية. حسب الخطة الجديدة سوف تجتمع جميع القوات الخاصة الإسرائيلية فى فرقة واحدة قوية حول نظام تنسيق متقدم, وسوف تكون المهمة الرئيسية لهذه الفرقة الذهبية هى أن تستعمل أسلحة ذكية إسرائيلية التصنيع لتدمير أهداف إستراتيجية، ودبابات العدو وهى فى طريقها إلى الجبهة.

إلى أن يأتى التقييم العام وكذا الرسالة المستقبلية لهذا الجيش الرقمى الجديد الذى يتم إعداده خلال خمس سنوات، إذ يقول مصدر إسرائيلى حسب ما جاء فى مجلة فوريد ريبورت: عندئذ سيكون جيش إسرائيل خير جهاز عسكرى على سطح المعمورة وكذا، أكثرها حداثة ورقيا وقوة تدميرية.

إلى هنا ينتهى عرض صورة ما هو قادم, وما تؤكده المجلة العالمية أنه سيتقرر فى ـ يوليو ٢٠٠٣ ـ هذا بينما ترتفع نبرة دعوات بناء الثقة لتأمين المستقبل.

عند هذا الحد علينا أن نؤكد أن بناء الثقة شعارنا وشعار جميع الوطنيين العقلاء سنوات وعقود وأجيال متلاحقة سابقة للطبخة الجديدة التى يطلقون عليها هذه التسمية فى العصر الأسود الذى نحياه.

ـ بناء الثقة يعنى أول ما يعنى ـ كما كان يعنى دائما وسيظل ـ بناء الجسور البينية, أى أجهزة الاتصال والتواصل بين مختلف العناصر الفاعلة فى قلب الوطن. أى أن بناء الثقة يعنى أول ما يعنى وفى الجوهر والأساس أن يتعارف ممثلو جميع العناصر التكوينية للوطن والأمة على بعضهم بعضا, وأن يقبلوا أن أحدا منهم ليس صاحب الحقيقة

المطلقة الواحدة ولا الحق الأوحد. ثم يرتقى الوطنيون إلى مستوى قرار ضرورة الإفادة من تجارب ومعطيات ورؤى الجميع, وذلك لرفع مستوى الذكاء الاجتماعى للوطن والأمة, وذلك فى قالب يضمن أكبر قدر من احترام مقتضيات الأمن القومى من ناحية, وكذا يفتح أبواب الإفادة من الجديد حتى وإن كان غير مرغوب فيه بداية. المعنى العام هو: أن ننظر إلى أنفسنا. أن نبدأ بأنفسنا, أن نقبل أنفسنا, فإذا كان قبول الآخر ـ حتى ولو كان غريما ـ مشروعا وضروريا, فلا أقل من قبول الذات فى المقام الأول, أولا وقبل أى اعتبار آخر, خاصة عندما تكون الذات الوطنية القومية فى مكانة التهديد, وإلا لأصبح قبول الغير معناه فتح الأبواب للتبعية والاستسلام ـ ما دامت الذات غير معترف بها من أبنائها.

ـ بناء الثقة فى ظروف عصرنا الراهن يقتضى وضع حد لتصنيف الطلائع إلى من كتب له ـ ربما إلى الأبد؟ ـ أن ينعت بلقب الأغلبية أو بوصمة المعارضة. الأرقام والنسب العددية مسائل نسبية حسب الظروف والملابسات، بل والأهواء أحيانا, فلو بدأنا على عكس ذلك بوضع أركان التلاقى الوطنى القومى, أى أركان إقامة جبهة وطنية متحدة ذات رؤية مستقبلية واضحة ثابتة لكان هذا أفضل بكثير من الدوران فى فراغ التجاهل والمغايرة, والحسد والتغييب...

أمامنا اليوم ـ مثلا ـ مجموعة من الأركان كما قدمتها بعض الأحزاب ولا شك أنه من المفيد بل ومن الواجب أن ندرس مجموعة أخرى تأتينا من الأغلبية, أو من مجموعة أخرى, ربما تكون هذه المرة من الهيئات غير الحكومية. ثم كيف نتجاهل رؤى قوى مهمة قد يختلف البعض مع عدد من منطلقاتها بينما يتفق السواد الأعظم من الوطن والأمة مع جوهر توجهها؟.

ـ بناء الثقة يستوجبه تهديد لاستقلال الوطن وأمنه القومى على أيدى جبهة معادية لم ولا ولن تعرف الكلل, تعلن اليوم عن مخططاتها الحربية التدميرية القادمة، المهم أن تدرك معظم القوى الفاعلة ـ من الأغلبية والأقلية, من القطاع المؤسسى أو القطاع غير الحكومى من أنصار التجديد وقوى التراث ـ حقيقة الخطر الذى يحاصرنا، بل ويهدد جبروته ليس فقط مستقبلنا وإنما يهدد أيضا أية قوة خارجية قد يتوهم البعض أنها قادرة على التوسط، دعنا من التحكم فى مخططات الدولة الصهيونية.

ـ بناء الثقة معناه رفع المحاذير التى تعوق تقارب مصر بالدائرة الفاعلة للمحيط العربى أولا, جنبا إلى جنب مع القوى الفاعلة الصاعدة فى دائرة الشرق الأوسط الواسعة, حتى التوجه إلى إقامة شراكة إستراتيجية مع الدول والأنظمة, وكذا القوى والمدارس الفكرية والمؤسسات غير الحكومية فى الساحة الأوسع من القارات الخمس, وفى المقام الأول بطبيعة الأمر دوائر الشرق الحضارى حيث يحيا أكثر من ثلثى البشرية، لا يفرق بيننا وبينهم أى إرث عدوانى تاريخى, ولا أية مطامع حيوية, بل الألفة والتواكب والتلاقى فى معظم القطاعات واللحظات والمواقف. ولعل بناء الثقة فى هذا المجال لا يقل أهمية عنه على الساحة الوطنية القومية, وهى الساحة الرئيسية كما قلنا. أى أن الاعتراف بالذات الذى يجب أن يكون له ـ كما قلنا ـ الأولوية المطلقة، يجب أن يقترن بـ«الاعتراف بالآخر» الشقيق الحليف زميل المسيرة الحضارية, شريكنا فى مواجهة أهوال الهيمنة, ومن ثم شريكنا الأول فى بناء نظام عالمى سلمى عادل متعدد الأقطاب والمراكز.

ـ بناء الثقة إذن يقتضى ألا نخطئ تحديد الأهداف، إذ نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا، لا أن نصادق من يعادينا, ونعادى أو نتجاهل من يصادقنا.

ـ وإننا لعلى يقين أن الدراسة المتأنية لأفكار وممارسات الجبهة الوطنية المتحدة فى المرحلة الثالثة لثورتنا المصرية ـ بدءا من سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٤٦ ـ المحورية ـ سوف تضع أمامنا الكثير مما فاتنا ونحن فى أشد حاجة إليه. هذا بشرط أن نتفق أولا على الاعتراف بالذات الوطنية القومية بكل ما تحتوى عليه من ثراء وإنجازات وقدرات ورؤى.

**قال صاحبى**: أفهم منك أنك ترحب بالتحديات؛ لأنها سوف تعيدنا إلى طريق الجبهة الوطنية المتحدة؟ لماذا إذن لا نسرع الخطى ونتحرك قبل أن يفوتنا القطار؟ أم أن القطار لم ولن يفوتنا أبدا..؟ عجبى!...

## ـ ٦٠ ـ

# الجبهة الوطنية المتحدة

## خطوات لكى يصبح الممكن ممكنًا

المداخل إلى مستقبل مصر تتزاحم هذه الأيام، والحمد لله، تصب فى قالب الأجل المرتقب عبور لمرحلة الحزن والأسى، نلحظ فى هذا الصدد تواكب ما طرحة عدد من طلائع الفكر والعمل ـ محمد حسنين هيكل، أمين هويدى، رشدى سعيد، على سبيل التمثيل دون الحصر.

وعندنا، أن بيت القصيد هو فى إدراك التفاعل بين قيادة دولتنا الوطنية من ناحية، والقاعدة الواسعة للحركة الوطنية السياسية والمجتمعية والفكرية من جهة أخرى.

يبدو الآن أن هناك قدرًا من الاتفاق على ضرورة إعادة صياغة هندام رئاسة الدولة حول رئيس الجمهورية رمز مصر ورأس دولتها. ومن هنا كان لزامًا علينا أن نتناول موضوع القاعدة ـ أى الجبهة الوطنية المتحدة ـ التى لولاها لا يمكن التفكير فى مستقبل ثابت لمسيرة مصر.

ـ نقول: بداية ونهاية، أى منذ بدء مصر أمة إمبراطورية عظمى حتى اليوم.

١ ـ نظرة إلى معركة قادش الفاصلة عندما استطاع رمسيس الثانى الشاب ـ بعد التخبط الأولى والتحرك الشبابى الضال الذى كاد يودى به وبشباب مصر ـ أن يحكم الحصار حول قلعة قادش، يحاصرها حتى تستسلم، وإذ به وهو الذى يبلغ السادسة عشرة يقرر: أن يرتفع العلم المصرى على القلعة جنبًا إلى جنب مع علم الحطيين الذين حاربوا واستبسلوا قبل أن يُهزمو، أن تصاف أرواح الجنود ويفسح لهم مجال التطوع فى جيش مصر لو أرادوا وإلا ذهبوا طلقين، أن لا تسبى النساء، وإنما يتاح لهن الزواج لمن يردن ذلك لضباط وجنود جيش فرعون، فوق هذا وذلك، يقرر رمسيس الثانى أن

يتزوج ابنة ملك الحطيين للتصالح وتوسيع رقعة الإمبراطورية لحدود سوريا وجنوب تركيا وغرب العراق، تأمينا لبوابة مصر الشرقية كما كان مفهوم الجبهة الواسعة، مفهوم الألفة واحترام العهد والمصاهرة دون التعدى والتنكر والإبعاد، نسينا، أو تناسينا، أو بالأحرى غيب علينا الإعلام الرسمى ما نحن منه وإليه من تحضر الرؤية وإدراك راق لمقتضى تأمين السلطة السياسية وتقسيم رقعتها.

٢ ـ نعبر الأجيال، نعبر أجيال الانحدار. تأتى حملة الغزو الفرنسى فى مطلع عصر الثورات الأوروبية، وفى نهاية القرن الثامن عشر يدرك ضابط شاب جاء إلى مصر من كتيبة لصيانة الديار باسم السلطان، يدرك مكانة مصر الچيو سياسية والحضارية، فيذهب إلى العلماء وأصحاب الرأى وكبار القوم والتجار حول الأزهر الشريف يسألهم أن يبايعوه واليا لمصر. يتم الانتخاب ومن ثم توليته دون انقلاب عسكرى، وإنما بعد إجماع أهل الشورى عليه فيقيم محمد على دولة عصرية جبارة شامخة قادت صحوة الشرق الحضارى نصف قرن قبل وثبة اليابان. دولة قامت على جبهة وطنية واسعة بين رجال الفكر والسلاح حول الشيخ رافع الطهطاوى وإبراهيم باشا سارى عسكر جيوش مصر، مع على مبارك وطلائع المهندسين والإداريين والمعلمين والضباط والصناع والمحاسبين. نهضة مصر التى مكنتها أن تواجه أنصار ١٨٤٠، فتشب من جديد فى عصر الخديوى إسماعيل منشئة أول نظام تمثيلى برلمانى فى العالم العربى والإسلامى، متبنيا برنامج الحزب الوطنى؛ مما أودى به ١٨٧٩، توطئه لثورة الجيش بقيادة أحمد عرابى ١٨٨١، ثم الاحتلال البريطانى منذ ١٨٨٢.

٣ ـ ثورة ١٩١٩ بقيادة الوفد المصرى، حول عبد الرحمن فهمى أولا ثم سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس. عميقة الجذور فى وجدان مصر واسعة الإنجاز فى حياتنا العامة، وقد بدأت أجيال الشباب تدرك قسطًا منها بعد طول غياب. لم يكن الوفد المصرى حزبًا بمعنى الكلمة. كان ـ حقيقة ـ وبكل معنى الكلمة، جبهة وطنية متحدة خرجت من رحاب الأزهر الشريف فى عناق مع الكنيسة القبطية، جمعت النقابى والباشا، صاحب الأرض والمصنع والمصرف، الطلبة برواد الفكر، الريفى بالمدنى، وفوق هذا وذاك جيش مصر وكوادر الحركة الوطنية، منذ «التنظيم السرى» حتى تولى حمدى سيف النصر وزارة الحربية وإعادة بناء جيش مصر الحديث.

تتوالى الأزمات، الثورة المضادة ضد حزب الأغلبية، ثم تأتى الحرب العالمية فيتساءل كواد الحركة الوطنية كيف يمكن الاستفادة منها من ظلمات الأحكام العرفية والاحتلال المهتز فى صراع عالمى أضعفه، وكأن مصر على مشارف ذلك الذى أصبح «موعد مع القدر». وفجأة وفى أوج الحركة الوطنية الثورية فى الأربعينيات من القرن العشرين، يجتمع طلاب فى العلم الثانوى والجامعات فينتخبون مندوبيهم إلى لجنتهم التنفيذية العليا، بينما يتحرك عمال مصر عبر اتحاداتهم النقابية، فينتخبون لجنتهم التنفيذية العليا، ثم يجتمع ممثلو القطاعين ـ العمالى والطلابى ـ بعد الانتخابات على مستوى مصر كلها، لتشكيل «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» المنتخبة ديمقراطيًّا فى ربيع ١٩٤٦، وتقود النضال ضد اتفاقية صدقى ـ بيفن ضد مشروع تحالف الشرق الأوسط، ضد الاحتلال والطغيان. حكومة وطنية مصرية بديلة يمثل مسارها عبر البيانات المنشورة البديل الوطنى الناصع لحكم أحزاب الأقلية المتعاونة مع قوى الاحتلال. يتم تفتيت اللجنة والقضاء على كافة الهيئات والصحف والنقابات والتنظيمات السياسية والطلابية والفكرية فى يوليو ١٩٤٦. تظل اللجنة ـ رغم حلها ـ رمزًا للبديل المرتقب. تتحرك، وكأنها شبح من جديد أثناء حرب فلسطين الأولى ١٩٤٨، ثم معارك الفدائيين فى القنال ١٩٥١. وفجأة، وبعد استيلاء الضباط الأحرار على الحكم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يصبح برنامج «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» أساسًا للمبادئ الستة لحركة الضباط الأحرار، حتى يصل إلى «ميثاق العمل الوطنى» ١٩٦٤.

الجبهة الوطنية المتحدة ـ المنتخبة من جماهير شعب مصر ـ أداة لصنع المشروع المصرى، وشق طريق الثورة الوطنية والاجتماعية من أوسع الأبواب.

٤ ـ ما زالت مسيرة مصر من يوليو ١٩٥٢ حتى تجلى الثورة الوطنية والاجتماعية ـ ابتداء من ١٩٦٤ ـ ماثلة فى العقل والوجدان، وقد استقر الشعور الوطنى المصرى والعربى على أن ما تحقق من نجاح تاريخى جاء نتاجًا لإقامة جبهة وطنية متحدة فى سنواتها الختامية، وهى الجبهة التى لولاها لما استمرت مصر بعد انكسار ١٩٦٧ واستطاعت أن تعبر فى ١٩٧٣. وكذا فإن تشتت القوى و«الحرب فى الظلام» بين من قيل إنهم «أهل الكفاءة» و«أهل الثقة» هو التوجة الذى أضعف مصر، رغم مظاهر النمو، ومهد الطريق إلى ما نحن فيه من ضعف الجبهة الداخلية.

٥ ـ الطريق واضح ـ إذن ـ الخط العام لمسيرتنا الوطنية القومية الحضارية ـ إن أردنا أن نعتبر ـ وعندنا أن معظم القوى تتحسس طريقها إلى هذا التوجه.

إن الجبهة الوطنية المتحدة فى مصر العربية، فى مطلع مرحلة الانتقال (ولا نقول القرن الواحد والعشرين بالترقيم).

تغيير العالم إلى مرحلة صياغة العالم الجديد، هى التى طالما نادينا بها، وفصَّلنا الخبر فيها منذ الستينيات من القرن العشرين، وخاصة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، مما يحتم الاختصار والتركيز.

(أ) **المستوى الأول**: السياسى، بشكل متخصص ـ يجب أن يشمل كافة الأحزاب السياسية، دون استثناء، والمنظمات الجماهيرية، وخاصة الاتحادات النقابية والمهنية المشكلة هنا فى نسب التمثيل، التى تعكس مدى حرية الانتخابات القادمة، ولا شك الواقعية سوف تملى علينا جميعًا أن نقبل بحل وسط لا استبعاد فيه، وكذا لا استمرار لافتعال استمرارية لا تتفق مع الشعور العام واستطلاعات الرأى المتتالية. نقول هذا من باب الواقعية، وكذا حرصًا على السلام الاجتماعى فى حدود مقبولة، ولا شك كذلك أن هذه النسب سوف تتبدل تدريجيا بعد إعادة صياغة القوالب الدستوريا وهندام قيادة الدولة حول رئاستها.

(ب) **المستوى الثانى**: المجتمعى، الثقافى بالمعنى الأوسع، والذى سوف يجمع ممثلى مختلف مدارس الفكر والعمل، على تنوع انتماءاتهم الحزبية والنقابية والمهنية، يتسع هذا المجال إلى الرأسمالية الوطنية الليبرالية إلى ممثلى التوجهين الرئيسيين: اتجاه التحديث الليبرالى، واتجاه الأصولية الإسلامية، كما يتسع إلى تشعب هذين التوجهين الرئيسيين من الاشتراكية إلى التراثية الجديدة، من الوحدة الوطنية إلى القومية، وذلك لا يستثنى أحد فى إطار الاحترام المبدئى الصريح الصارم للدستور والقانون. الفكرة هنا هى فى توسيع شبكة الجبهة الوطنية المتحدة، من خلال الجمع بين هذين المستويين بدلا من الاكتفاء بالمستوى السياسى المحدود، وذلك إدراكًا منا أن جذور الوئام وكذا بذور الاختلاف تدب عميقا فى أركان حضارتنا المصرية المستمرة عبر سبعين قرنًا.

ولتكن هذه مشاركة مرحلية ولكنها مبدأية بكل معانى الكلمة، تسعى إلى إثراء دائرة التلاقى الوطنى ابتداءً من هموم مصر، إدراكا لجراحها، متجهة إلى رأب الصدع وصيانة الديار، بحيث يمكن أن يصبح الممكن ممكنا.